

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: ﴿تَعَزَّزْ مِنْ تَشَاءِ﴾⁽²⁾ اشتملت السورة على نكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزّه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خوّلوه في العاقبة من النصره عليهم فخطمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون.

وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾

والتسليم على المرسلين.

وَلَمَّا دَعَا إِلَى رَبِّ الْمَلَكِوتِ ﴿٧٩﴾

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قبض لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد وعن علي رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالكميال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين⁽³⁾.
عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنبي وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص مكية

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾

﴿ص﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة، وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجرّ كقولهم الله لأفعلن بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتانيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ ص بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل فيمن كسر هو من المصاواة وهي المعارضة والمعالجة ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة،

والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصره والتأييد والثواب في العاقبة والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وإن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وفي ذلك تسلية له وتنغيس عنه وقوله ﴿فسوف يبصرون﴾ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

أَمْعَادِنَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٧٧﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض ناصحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أميتهم ولا ببروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى أتاخ بفنائهم بغتة فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي نحس بها ويروك موردها على نفسك وطبعت إلا لمجبتها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود فبشر صباح.

فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَكَلَّمَ صَاحِبَ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٦﴾

وقرئ: ﴿نزل بصاحتهم﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على ونزل العذاب، والمعنى: فسأ صبايح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»⁽¹⁾، وإنما ثنى.

وَنَزَلَ عَنْهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ

﴿وتول عنهم﴾ ليكون تسلية على تسلية وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول.

وَأَنْشُرَ مَنُوتَ بَيْعُوتِكُمْ ﴿٧٥﴾

وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساء وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالأخر عذاب الآخرة.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصُوتُونَ ﴿٧٤﴾

= في تفسيره، ونكره الواحدي في تفسيره، وابن حاتم في تفسيره: 182/3.

(4) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي: 3/182.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (الحديث: 4198)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، الحديث: (121 - 1365).

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) نكر الزيلعي أنه أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ونكره الثعلبي =

ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهي.

فإن قُلْتُ: قوله صَ «والقرآن ذي الذكر» كلام ظاهره متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون قد نكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبية على الإعجاز كما مر في أوّل الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كما قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز والثاني أن يكون صَ خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة كأنه قال هذه صَ يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بصَ والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَفِئَاتِهِمْ ۝

ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله وإذا جعلتها مقسماً بها وعطفت عليها والقرآن ذي الذكر جاز لك أن تريد بالقرآن التتذيل كله وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير الرجل والنكر الشرف والشهرة من قولك فلان منكور، وإنه لذكر لك ولقومك أو الذكري والموعظة، أو نكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها كإقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما، وقرئ: في غرة أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

كِرْ أَهْلِكَا بِنِ قِيَامِهِمْ بَيْنَ قَرِينٍ مَادَاوَا وَلَا تَجِيءُ مَنَاسِكُ ۝

«كم أهلكنا» وعيد لنوي العزة والشقاق **«فنادوا»** فدعوا واستغاثوا وعن الحسن فنابوا بالتوبة **«ولات»** هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التانيث كما زيدت على رب، وثم للتوكيد وتغيير بئلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيهما إما الاسم، وإما الخبر وامتنع بروزهما جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعند الاخفش أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان و **«حين مناص»** منصوب بها كأنك قلت: ولا حين مناص لهم وعنه أن ما ينتصب بعده بفعل مضمّر أي ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء أي ولا حين مناص كأنك قلت لهم وعندهما أن المنصب على ولات حين حين مناص أي وليس حين مناص والرفع على ولات حين مناص حاصلًا لهم، وقرئ: حين مناص بالكسر ومثله قول أبي زيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبنا لآن لات حين بقاءه
فإن قُلْتُ: ما وجه الكسر في أوان؟ قُلْتُ: شبه بإذ في قوله وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعض التنوين لأن الأصل ولات أوان صلح.

فإن قُلْتُ: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قُلْتُ: نزل قطع المضاف إليه من مناص لأن أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف إليه وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن، وقرئ: ولات بكسر التاء على البناء كجبر.

فإن قُلْتُ: كيف يوقف على لات؟ قُلْتُ: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التانيث وأما الكسائي فيوقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة وأما قول أبي عبيد إن التاء داخلية على حين، فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملترقة بحين في الإمام لا متشبث به فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط والمناص المعنا والقوت يقال ناصه ينوصه إذا فاته واستنصص طلب المناص قال حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استنصص ورام جرى المسحل
وَجَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝

«منذر منهم» رسول من أنفسهم **«وقال الكافرون»** ولم يقل وقالوا إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم أولئك هم الكافرون حقاً وهل ترى كفرةً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صنّعه الله بوحيه كاذباً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحته، روي أن إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً وشق على قريش وبلغ منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صنابدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني» قالوا أرفضنا وأرفض نكر آلهتنا وندعك والهك فقال عليه السلام: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم أعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقالوا: نعم، وعشرًا أي نعطيكمها وعشر كلمات معها فقال: قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا⁽¹⁾.

أَجْمَلَ الْأَيْمَةَ إِلَيْهَا وَجَدًا إِنَّ هَذَا لَنَرٌّ عَجَابٌ ۝

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون من الفتن (الحديث رقم: 3232) وأحمد في المسند 1/362.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي شَكٍّ مِّنْ دُرِّكَ بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ
 ٨٠.

﴿بل هم في شك﴾ من القرآن يقولون في أنفسهم أما
 وأما وقولهم إن هذا إلا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه
 يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ بعد
 فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ
 يعني: أنهم لا يصنفون به إلا أن يمسه العذاب مضطرين
 إلى تصديقه.

أَرِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٨١.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني ما هم بمالكي
 خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شأواً ويصرفوها عن
 شأواً ويتخيروا للنبوة بعض صنابيرهم ويترفعوا بها عن
 محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي يملك الرحمة
 وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب
 المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته
 وعله كما قال: أمهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا ثم
 رشح هذا المعنى فقال:

أَر لَّهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ٨٢.

﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا في
 الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة
 والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا
 يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة
 وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق
 بإيثار النبوة بون من لا تحق له ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾
 فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش
 حتى يستروا عليه ويديروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا
 الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خساهم خسارة
 عن نك بقوله:

جُنْدًا مَا هُنَاكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ٨٣

﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا
 جيش من الكفار المتحزبون على رسل الله مهزوم مكسور
 عما قريب فلا تبال بما يقولون، ولا تكثرث لما به يهزون
 وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرئ
 القيس:

وحديث ما على قصره إلا أنه على سبيل الهزة
 وهناك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من
 الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر
 ليس من أهله لست هناك.

كذبت قبلهم قوم نوح وعاذ وفرعون ذو الأوتار ٨٤.

﴿اجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ أي
 بليغ في العجب، وقرئ: ﴿عجاب﴾ بالتشديد كقوله تعالى:
 ﴿مكرًا كبيرًا﴾^(١) وهو أبلغ من المخفف ونظيره كريم
 وكرام وكرام، وقوله اجعل الآلهة إلهًا واحدًا مثل قوله
 وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إلهًا في أن معنى
 الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعيم، كأنه
 قال اجعل الجماعة واحدًا في قوله لأن ذلك في الفعل
 محال.

وَأَنْطَلَقَ الْأَنبَاءُ مِنْهُمْ وَإِنْ تُنَادُوا فَاصْتَبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ
 ٨٥.

﴿الملا﴾ اشرف قريش يريدوا انطلقوا عن مجلس أبي
 طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين
 بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم في دفع
 أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي يريد الله
 تعالى ويحكم بأمضائه وما أراد الله كونه، فلا مرد له ولا
 ينفع فيه إلا الصبر أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر
 يراد بنا فلا انفكك لنا منه، أو أن دينكم لشيء يراد أي:
 يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، وأن بمعنى أي لأن
 المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا
 ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلاقهم مضمناً معنى
 القوب، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول وأنهم
 قالوا امشوا أي أكثروا واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت
 ولايتها ومنه الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية قال
 رسول الله ﷺ: ﴿هضموا فواشيكم﴾⁽²⁾، ومعنى واصبروا
 على آلهتكم واصبروا على عباتها والتمسك بها حتى
 لا تزلوا عنها، وقرئ: وانطلق الملا منهم امشوا بغير أن
 على إضمار القول وعن ابن مسعود وانطلق الملا منهم
 يمشون أن اصبروا.

مَا يَمْتَنِعُ بِهَا فِي الْيَوْمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْتِلَاقٌ ٨٦.

﴿في الملة الآخرة﴾ في ملة عيسى التي هي آخر
 الملل لأن النصراني يدعونها وهم مثلثة غير موحدة أو في
 ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا كائنًا
 في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالاً من
 هذا ولا تعلق بما سمعنا كما في الوجهين، والمعنى: أنا لم
 نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة
 الآخرة توحيد الله، ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أي افتعال وكنب،
 أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم
 وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: لولا نزل هذا
 القرآن على رجل من القريتين عظيم وهذا الإنكار ترجمة
 عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من
 شرف النبوة من بينهم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الطهارة، باب: الأدعية (الحديث رقم:

1276) وعند مسلم «لا ترسلوا فواشيكم...» أخرجه في كتاب:

الأشربة، باب: الأمر بتغطية الأناة... (الحديث رقم: 98 - 2013).

(1) سورة نوح، الآية: 22.

(2) فواشي: جمع فاشية، وهي كل منتشر من المال كالإبل والغنم
 يسائر البهائم وغيرها.

بالعذاب⁽²⁾ وقيل: نكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزة: عجل لنا نصيبنا منها أو عجل لنا صحيفة أعمالنا نظهر فيها.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتُ: كيف تطابق قوله: ﴿أصبر على ما يقولون﴾ وقوله: ﴿وانكر عبيدنا داود﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قُلْتُ: كانه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بنكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه، فاستغفر وأتاب ووجد منه ما يحكى من بكاؤه الدائم وغمه الواصب ونقش جنائته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قاله ﷺ: اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم وانكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي ﴿ذا الأيد﴾ ذا القوة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل يقال فلان أيد ونو أيد ونو أيد وأيد كل شيء ما يتقوى به ﴿أواب﴾ تَوَابَ رَجَاعَ إِلَى مِرْضَاعِ اللَّهِ.

فإن قُلْتُ: ما ذلك على أن الأيد القوة في الدين! قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿إنه أواب﴾⁽³⁾ لأنه تعليل لذي الأيد.

إِنَّا سَخَرْنَا لِهَاجِلٍ مَعَهُ يَنبَغِ بِالْعَمَى وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾.

﴿والإشراق﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ نخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق»⁽⁴⁾. وعن طائوس عن ابن عباس قال: هل تجدون نكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا. فقرا: ﴿إنا سخرنا له الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ وقال: «كانت صلاة يصلها داود عليه السلام وعنه ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية وعنه لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يسبحن بالعشي والإشراق» وكان لا يصلي صلاة الضحى، ثم صلاها بعد وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجدك ذلك في

﴿ذو الأوتاد﴾ أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده قال:

والبيت لا يبنتني إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود في ظل ملك ثابت الأوتاد وقيل: كان يشبع المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه.

وَمَعْرُودٌ رَمَى لُوطٍ وَأَصْحَبُ كَيْفَكَ أَرْطَبَكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٩﴾.

﴿أولئك الأحزاب﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكنيب، ولقد نكر تكنيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوهم جميعاً وفي تكرير التكنيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه، ثم قال:

إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ أَرْطَلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿٢٠﴾.

﴿فحق عقاب﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم.

وَمَا يَنْظُرُ هَكَذَا إِلَّا صَيِّمَةٌ رَجُلَةٌ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿٢١﴾.

﴿هؤلاء﴾ أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذکر أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة النفخة ﴿وما لها من فواق﴾ وقرئ: بالضم ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾⁽¹⁾ وعن ابن عباس ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقاة ساعة ترجع الدر إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تتنى ولا ترد.

وَقَالُوا رَبَّنَا كَمْ لَنَا وَطْنَا قَبْلَ بَرِّ الْحَسَابِ ﴿٢٢﴾.

القط القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه وقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها قوله تعالى: ﴿عجل لنا قطناً﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك

(3) سورة ص، الآية: 44.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک 53/4.

(1) سورة الاعراف، الآية: 34.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 53.

كتاب الله تعالى يعني: هذه الآية ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا نخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقيين﴾⁽¹⁾ وقول أهل الجاهلية أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق، ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات! قُلْتُ: نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع محاضر تلك الحال يسمعا تسبح ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يفاع تحرق.

ولو قال: محرقة لم يكن شيئاً

وَأَقْبَرَ حَمْرُورَةً كُلَّ لَهْ أَوَّابٍ ﴿٨﴾.

وقوله: ﴿محمشورة﴾ في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكز في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خلفاً لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها، وقرئ: والطير محشورة بالرفع ﴿كل له أواب﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاء لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب، وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه، وقيل: الضمير لله أي: كل من داود والجبال والطير لله أواب أي: مسبح مرجع للتسبيح.

يَبْدَدْنَا مَلَكًا وَرَبَّنَا أَلْجَمَكُمُ اللَّيْلُ ﴿١٠﴾.

﴿وشدنا ملكه﴾ قَوَيْنَاهُ قَالَ تَعَالَى: سنشد عضدك وقرئ: ﴿شدنا﴾ على المبالغة قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستثم يحرسونه وقيل: الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فاعلم الرجل، فقال: إن الله عز وجل لم يأخذني بهذا الذنب ولكن باني قتلت أبا هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أنتب أحد نذباً أظهره الله عليه فقتله فهابوه: ﴿الحكمة﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق

الحق فهو حكمة، الفصل التمييز بين الشبثين وقيل: للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في تقضبه فصل أي مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله فويل للمصلين إلا موصولاً بما بعده ولا والله يعلم وأنتم حتى يصله بقوله لا تعلمون ونحو ذلك، وكذلك مظان العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأرئت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو قوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه». وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم هو قوله: أما بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن يذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أما بعد، ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مغل ولا إشباع ممل ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نذر ولا هنر⁽²⁾، كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امراته فيتزوجه إذا أعجبتهم وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتابوها وقد روي أن الانصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فساءه النزول له عنها فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجه وهي أم سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هوك، وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فأثره أهلها فكان نذبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وأما ما يذكر أن داود عليه السلام تمنى منزلة أبيه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إن آياتي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلى إبراهيم بنمرود ونبح ولده وإسحاق بنبحة وذهب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم نخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة

(1) سورة الحجر، الآية: 73.

(2) تقدم في الأعراف. أخرجه أبو داود في كتاب: الألب، باب: الهذي في الكلام (الحديث رقم: 4839).

تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف قال الله تعالى: حديث ضيف إبراهيم المكرمين لأنه مصر في أصله تقول خصمه خصماً كما تقول ضافه ضيفاً.

فإن قُلْتُ: هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام ذلك؟ **قُلْتُ:** معنى خصمان فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من قرأ خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: ﴿هذا خصمان اختصموا في ربهم﴾ (2).

فإن قُلْتُ: فما تصنع بقوله إن هذا أخي وهو دليل على اثنين! **قُلْتُ:** هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض.

فإن قُلْتُ: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان! **قُلْتُ:** معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون.

فإن قُلْتُ: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله نبا الخصم وخصمان؟ **قُلْتُ:** لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

فإن قُلْتُ: بم انتصب ﴿إِنْ﴾! **قُلْتُ:** لا يخلو إما أن ينتصب بآتاك أو بالنبا، أو بمحنوف فلا يسوغ انتصابه بآتاك لأن إتيان النبا رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبا لأن النبا الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبا القصة في نفسها لم يكن ناصباً فبقي أن ينتصب بمحنوف وتقديره، وهل آتاك نبا تحاكم الخصم ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وأما إذ الثانية فبديل من الأولى ﴿تسوروا المحراب﴾ تصعدوا سورهم ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره في الابنية تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته روي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبوا أن يدخلوا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الخرس فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاتَّكَمَ بَيْنَهُمَا بِالْحَرِيِّ وَلَا تَلْطِطُ وَأَعَدْنَا إِلَيْكَ سَوَاءَ الْوَعْدِ (31).

﴿ففرغ منهم﴾ قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخواص أموره ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجاوزه في غير يوم القضاء ففرغ منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتكره من يدخل عليه ﴿خصمان﴾ خبر مبتدأ محنوف أي نحن خصمان ﴿ولا تشطط﴾ ولا تجر،

حامة من ذهب فمد يده لباخذها لابن له صغير فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت في كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بينها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن سوريا وهو صاحب بعث البلقاء: أن ابعت أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فاتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أئمة المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء (1) وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتصم خلفاءه وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما تكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال: عمر لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قُلْتُ: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ **قُلْتُ:** لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التامل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثرًا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ من أن يبارده به صريحًا مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض لها بإتكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية فاستسمح حال نفسه وذلك أزر له لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياساً لسانه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه اصون لما بين الولد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قُلْتُ: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ **قُلْتُ:** ليحكم بما حكم به من قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعترفًا على نفسه بظلمه.

﴿وَلَمْ أَتُكِّمْ بِذَلِكَ بِنُورِ الْبَصَرِ إِذْ تَسَرَّوْا بِالْمِحْرَابِ (31)﴾.

﴿وهل آتاك نبا الخصم﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجبية التي حقها أن تشيع، ولا

(2) سورة الحج، الآية: 19.

(1) لم يخرج الزليعي.

يخبروا عن أنفسهم بما لم يلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قُلْتُ: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصورها في أنفسهم وكانوا في صورة الاناسي كما تقول في تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخطأما وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سيد ولا لبد وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاة وأربعون فخطأناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربيها.

فإن قُلْتُ: ما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعمة أنثى! قُلْتُ: يقال لك امرأة أنثى للحسنة الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفنورها ونلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها الأ ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله: فتور القيام قطع الكلام وقوله: تمشي رويداً تكاد تنغرف.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ إِسْوَالٌ تَهْمِيكَ إِكَّ يَمَاجِيْهِ وَإِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ يَبِيْنِي بَسْمُهُمْ عَلَى بَيْتِيْنَ إِلَّا أَلِيْنَ مَاسُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ وَقِيْلَ مَا هُمْ وَكَلَّ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَّهُ فَاسْتَعْفَرَ رَبِّيْ وَحَرَّ رَأْسَهُ وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَمَغْرَبًا لَمْ دَلِكْ وَإِنَّ لَمْ عِنْدَنَا لِرَأْيِنِ وَحَسَنَّ مَوَآبٍ ﴿١٥﴾.

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: من دعاء الخير وقد ضمن معنى الإضافة فعدى تعديتها كانه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب.

فإن قُلْتُ: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قيل استماع كلامه؟ قُلْتُ: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ويروي أنه قال: أنا أريد أن أخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجيبة فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرّف ما وقع فيه ﴿الخطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة والخليطة والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين لا شيء

وقرى: ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق، وقرى: ﴿ولا تشطط﴾ ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق و﴿سواء للصراط﴾ وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسَّحْ وَتَمَوْنَ نِعْمَةً وَلِي نِعْمَةٌ رَّجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾.

﴿لخي﴾ بدل من هذا أو خبر لأن المراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الخطاء﴾⁽¹⁾ وكل واحدة من هذه الأخوات تتلى بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقرى: تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطح ونطم ولقوة ولقوة ﴿اكفلنيها﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني اكفلها كما اكفل ما تحت يدي ﴿وعزني﴾ وغلبني يقال عزه تعزه قال:

قطاة عزها شرك نباتت تجانبه وقد علق الجناح يريد جاني بحجاج لم أقدر أن أورده عليه ما أرد به وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها لوني، وقرى: وعازني من المعازة وهي المغالبة وقرأ أبو حيوة وعزني بتخفيف الزاي طلباً للخفة وهو تخفيف غريب وكانه قاسه على نحو ظلت ومست.

فإن قُلْتُ: ما معنى نكر النعاج! قُلْتُ: كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا وللتنبية على أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمح الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمة وجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوربا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة وخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تنمية المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك حاجة حريص على بلوغ مراده والليل عليه قوله وإن كثيراً من الخطاء وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بنكر النعجة.

فإن قُلْتُ: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرت بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم؟ قُلْتُ: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله:

يا شاة ما نقص لمن حلت له فرميت غفلة عينه عن شاته وشبهها بالنعجة من قال كنعاج الملاء تعسفن رملأ لولا أن الخطاء تاباه إلا أن يضرب داود الخطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قُلْتُ: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن

عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة ثلاث شياء.

فإن قُلْتُ: فهذه الخلطة ما تقول فيها! **قُلْتُ:** عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه.

فإن قُلْتُ: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ **قُلْتُ:** قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إثارة عادة الخلطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلعة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأن له في أكثر الخلطاء أسوة وقرئ ليبيغي بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: أضرب عنك الهموم طارقتها، وهو جواب قسم محذوف وليبغ بحذف الياء اكتفاء منها بالكسرة وما في ﴿وقليل ما هم﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن ﴿إنما افتناه﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرئ فتناه بالتشديد للمبالغة وافتناه من قوله: لئن فتننتي لهي بالأمس افتنت وفتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين، وعبر بالرايع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود وعن الحسن لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإتابة فيكون المعنى: وخر للسجود راکعاً أي مصلياً لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة.

﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتصل وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليفة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه نمع وجهه نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزينج من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطبته في كفه حتى لا ينساها وقيل: إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهاجر والسرياني والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فرغ لخلولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان نذب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته.

بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَبِغُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَأَلُوا بِرَأْسِ الْكُفْرَانِ ﴿٦٧﴾

﴿خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ومنه قولهم خلفاء الله في أرضه أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير **﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾** أي بحكم الله تعالى إذا كنت خليفته **﴿ولا تتبع﴾** هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا **﴿فيضلك﴾** الهوى فيكون سبباً لضلالك **﴿عن سبيل الله﴾** عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها **﴿ويوم الحساب﴾** متعلق بنسوا أي بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿٦٧﴾

﴿باطلاً﴾ خلقاً باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة أو مبطلين عابئين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعبين﴾⁽¹⁾ **﴿وما خلقناهما إلا بالحق﴾**⁽²⁾. وتقديره نوي باطل أو عبثاً فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنياً موضع المصدر وهو صفة أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناهما نفوساً أودعناها العقل والتمييز ومنحناها بالتمكين وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم **﴿وذلك﴾** إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قُلْتُ: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾⁽³⁾ فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكم **﴿قُلْتُ:** لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون نك ويقولونه لأن الجزء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جحد

(3) سورة لقمان، الآية: 25.

(1) سورة النخان، الآية: 38.

(2) سورة النخان، الآية: 39.

لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخالص وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سرعاً خفافاً في جريها⁽²⁾. وروي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فاصاب ألف فرس وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد من النكر كان له وقت العشى وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لماً فاته فاستردّها وعقرها مقرّباً لله وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل: لما عقرها أبى الله خيراً منها وهي الريح تجري بأمره.

فَقَالَ إِنَّهُ أَحَبُّتُ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)

فإن قُلْتُ: ما معنى: ﴿أحبت حب الخير عن نكر ربي﴾! قُلْتُ: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل: أنبت حب الخير عن نكر ربي أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن نكر ربي وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان أن أحببت بمعنى لزمتم من قوله مثل يعير السوء إذا أحبها وليس بذلك والخير المال كقوله إن ترك خيراً، وقوله: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ والمال الخيل التي شغلته أو سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»⁽³⁾ وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان بون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير»⁽⁴⁾. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستقون من السابق، فقال رسول الله ﷺ فقال له الرجل أردت الخيل فقال وأنا أردت الخير⁽⁵⁾، والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك أو المخبأة بحجابها والذي دل على أن الضمير للشمس مرور نكر العشى ولا بد للمضمر من جري نكر أو دليل نكر وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت بحجاب الليل يعني: الظلام ومن يدع التفاسير أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه.

رُدُّوهُا عَلَيَّ فَلْيَقِ سَمًا بِأَسْرُوقٍ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقاً كلا إقراراً.

أَرَجَعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُغِيرِينَ فِي الْأَرْضِ أَرَجَعَلُ الْمُغِيرِينَ كَالْمُجَارِ (٣٤)

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى: الاستفهام فيها الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

كَلِمَةُ أَرْجَعَلُ إِلَيْكَ مُبَرَّكٌ لِكَبْرِهِ وَإِنِّي لَوَسِّدٌ كَرِيمٌ (٣٥)

وقرئ: ﴿مباركاً﴾ وليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب وتدبر الآيات للتفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التاويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائش وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نشور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتاويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعنا من القراء المتكبرين.

وَرَبِّعًا لِدَاوُدَ سَيِّئًا يَمُمُ الْأَعْدَاءُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٦)

وقرئ: ﴿نعم العبد﴾ على الأصل والمخصوص بالمدح محضوف، وعلل كونه ممدوحاً بكونه أوّاباً رجاعاً إليه بالتوبة أو مسبحاً مؤوباً للتسبيح مرجعاً له لأن كل مؤوب أوّاب.

إِعْرَضَ عَلَيْهِ بِالْمَرْيَةِ الصَّبُونَةُ لَمِيَاً (٣٧)

والصافن الذي في قوله ألف الصفون فما يزال كأنه، مما يقوم على الثلاث كسيرا وقيل: الذي يقوم على طرف سبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن، فالذي يجمع بين يديه وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوا مقعده من النار»⁽¹⁾ أي واقفين كما خدم الجابرة.

فإن قُلْتُ: ما معنى وصفها بالصفون! قُلْتُ: الصفون

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).
(2) قال: الصفون أن يقف على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمتخيم والصفان الذي يجمع بين يديه. قال: ووصفها بذلك؛ لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخالص، أو وصفها ليجمع لها الوصفين المحمودين جارية وواقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمأنينة؛ لأن

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).
(2) قال: الصفون أن يقف على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمتخيم والصفان الذي يجمع بين يديه. قال: ووصفها بذلك؛ لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخالص، أو وصفها ليجمع لها الوصفين المحمودين جارية وواقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمأنينة؛ لأن

(3) قال الزيلعي: أخرجه إبراهيم الحربي في كتابه: 3/191.

وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً وكانت له أم ولد يقال لها: أمينة إذا نخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فانكرته وطرته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسيوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فانكر أصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل أصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له أصف: إنك لمفتون بذنك والخاتم لا يقر في يدك فتب إلى الله عز وجل ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقفوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ألا ترى إلى قوله من محاريب وتماثيل وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأنس فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه وقوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ ناب عن إفاة معنى إنابة الشيطان منابه تبواً ظاهراً.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَمَنْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤُوفُ ﴿٦٥﴾.

قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ﴿لا يَنْبَغِي﴾ لا يتسهل ولا يكون، ومعنى ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ بوني.

فإن قُلْتُ: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره! قُلْتُ: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً

﴿فطفق مسخاً﴾ فجعل يمسح مسخاً أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في القاب الزحاف في العروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف وقيل مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله ردها علي! قُلْتُ: بمحذوف تقديره قال: ردها علي فاضمر وأضمر ما هو جواب له كأن قائلًا قال فماذا قال سليمان لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بأمر الدنيا حتى تفوته الصلاة عن وقتها، وقرئ بالسووق بهمز الواو لضممتها كما في أنور ونظيره الغور في مصدر غارت الشمس وأما من قرأ بالسووق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل مؤسى ونظير ساق وسوق أسد وأسد، وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لا من الإلباس قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننك من السخرة فسيبنا أن نقتله أو نخيله فعلم ذلك فكان يغذوه في السحابة فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتاً فتنه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه، وروي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». «ولم يقل إن شاء الله طفاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»⁽¹⁾. فلنك قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٦٦﴾.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يرى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فانه أعلم بصحته⁽²⁾ حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أتاه بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعا حزناً على أبيها فامر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولادها يسجدن له كعادتتهن في ملكه فأخبر أصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة

(2) قال الزليعي: نكره ابن كثير في تفسيره، وقال: إسناده قوي /3 .192.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان...﴾ (الحديث: 3424)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الاستثناء الحديث: (25 - 1654).

غل يدا مطلقها وأرق رقبته معتقها
وقال حبيب: إنَّ العطاء إيسار وتبعه من قال:
ومن وجد الإحسان قيدياً تقيدياً
وفرّقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه
كوعده وأوعده.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامَنَّ أَوْ أَمْسَكَ بِمَعْرِ حِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُومًا وَحَسَنَ
تَبَابِ ﴿٢٨﴾

أي: **﴿هذا﴾** الذي أعطيتك من الملك والمال والبسطة
﴿عطاؤنا﴾ بغير حساب يعني: جماً كثيراً لا يكاد يقدر
على حسبه وحصره **﴿فامنن﴾** من المنة وهي العطاء أي
فأعط منه ما شئت **﴿أو أمسك﴾** مفوضاً إليك التصرف فيه
وفي قراءة ابن مسعود هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير
حساب أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من
الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير
حساب أي لا حساب عليك في ذلك.

وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيئٌ كَثِيرٌ فَمَا يَسُرُّ وَوَدَّابِ
﴿٢٩﴾

﴿أيوب﴾ عطف بيان **﴿وإذ﴾** بدل اشتغال منه **﴿إني
مسيئ﴾** باني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو
لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ بنصب بضم
النون وفتحها مع سكون الصاد ويفتحهما وضمهما
فالنصب والنصب كالرشد والرشد والنصب على أصل
المصدر والنصب تثقيب نصب والمعنى واحد وهو التعب
والمشقة، والعذاب الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه
من أنواع الوبس وقيل الضر في البدن والعذاب في ذهاب
الأهل والمال.

فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلمه الله
على أنبيائه ليقضي من آتعايم وتعذيبهم وطره ولو قدر
على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرر في
القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب! قلت: لما
كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما
مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى
الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه
فاعله ولا يقدر عليه إلا هو وقيل: أراد ما كان يوسوس به
إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء وبغيره على
الكراهة، والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك
بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.
وروي أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين فارتد أحدهم
فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان إن الله لا يبتلي الأنبياء
والصالحين وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على
ظالم فلم يغثه وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر
فداهنه ولم يغزه وقيل: أعجب بكثرة ماله.

أَرَاكُم بِرِجْلِكُمْ هَذَا مُغْتَسِلِينَ بَآرِدٍ وَمُرْكَبٍ ﴿٣٠﴾

﴿أركض برجلك﴾ حكاية ما أجيب به أيوب أي اضرب

لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه
ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد
الإعجاز ليكون نكلاً دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم
وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات فذلك معنى قوله
لا ينبغي لأحد من بعدي وقيل: كان ملكاً عظيماً، فخاف أن
يعطي مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت
الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك وقيل: ملكاً لا أسلبه ولا يقوم
غيري فيه مقامي كما سلبته مرة وأقيم مقامي غيري،
ويجوز أن يقال علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك
العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يظلم بأعبائه غيره
وأوجبت الحكمة استيهاه فأمره أن يستوهبه إياه
فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه
لا يظلم بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهاه فأمره
أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله، الصفة التي
علم الله أنه لا يظلمه عليها إلا هو وحده دون سائر عباد
أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال: لا ينبغي لأحد من بعدي
ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما
ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك
ولكنك تريد تعظيم ما عنده وعن الحجاج أنه قيل له: إنك
حسد، فقال: أحسد مني من قال هب لي ملكاً لا ينبغي
لأحد من بعدي وهذا من جرأته على الله وشيطنته، كما
حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته
فقال: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** وأطلق طاعتنا فقال:
﴿وأولي الأمر منكم﴾.

مَحَرَّنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِيحًا حَيْثُ أَمَّابَ ﴿٣١﴾

قرئ: الريح والرياح **﴿ريخاء﴾** لينة طيبة لا تزعزع
وقيل طيبة له لا تمتنع عليه **﴿حيث أصاب﴾** حيث قصد
وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ
الجواب وعن روبة أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسالاه
عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه
طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله بك خيراً.

وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٢﴾

﴿والشياطين﴾ عطف على الريح **﴿كل بناء﴾** بدل من
الشياطين.

وَالْآخِرِينَ مُفْرِنِينَ فِي الْأَمْفَاكِ ﴿٣٣﴾

﴿وآخرين﴾ عطف على كل داخل في حكم البديل وهو
بديل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية
ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج
الدر من البحر وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع
بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد
وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في
الجوامع والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنع
عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك
ومن جفاك فقد أطلقك ومنه قول القائل:

أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان، ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهيني ما ملكت يميني ولم أكل إلا ومعني يتيم ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعني جائع، أو عريان فكشف الله عنه.

وَأَذْكُرُ عِدَّتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾.

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعابنا ومن قرأ عبادنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف نزيته على عبادنا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحق، لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جنماً لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أولى الأيدي والأبصار﴾ يريد أولى الأعمال والفكر كان الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار نوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزماني الذين لا يقدرين على أعمال جوارحهم والمسلوب العقول الذين لا استبصار بهم وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها وقرئ أولى الأيدي على جمع الجمع، وفي قراءة ابن مسعود أولى الأيدى على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن.

إِنَّا أَنْصَلْتُمْ بِحَالِكُمْ نَكْرَى الْأَدَارِ ﴿١٦﴾.

﴿أخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بنكرى الدار شهادة لنكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بما خلص من نكرى الدار على أنهم لا يشوبون نكرى الدار بهم آخر إنما همهم نكرى الدار لا غير ومعنى نكرى الدار نكراهم الآخرة دائباً ونسيانهم إليها نكر الدنيا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وترهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء وبينهم وقيل: نكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصلح الذي ليس لغيرهم.

فإن قلت: ما معنى أخلصناهم بخالصة! قلت: معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها وتعاضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم.

وَلِيَتِمَّ عِدَّتَا لَوْنِ الْمَصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَدَا الْكُفْلَى وَكَأَنَّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٨﴾.

﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم

برجلك الأرض وعن قتادة هي أرض الجابية فضربها فنبتت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبداً باطنك وظاهره وتنقلب ما بك قلبه وقيل: نبتت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإنان الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبتت عين حارة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبتت باردة فشرب منها.

وَوَجِبَ لَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ رَمَعَهُ يَتَا وَرَكَرَى لِأُولَى الْأَلْتَبِ ﴿١٧﴾.

﴿رحمة منا ونكرى﴾ مفعول لهما والمعنى أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولي الأبواب لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم.

وَمَنْ يَدْرِكْ مِنْنَا فَأَنْزِبْ يَوْمَهُ وَلَا تَحْتِ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّهُ أَوْلَى ﴿١٨﴾.

﴿وخذ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وعن ابن عباس قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج قد خبث بأمة فقال: «خذوا عنكالا فيه مائة شمرخ فاضربوه بها ضربة»^(١) ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت ذوابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأرد عليك مالك وأولادك فهمت بذلك فانركتها العصمة فنكرت ذلك له فحلف وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجنناه صابراً﴾ علمناه صابراً.

فإن قلت: كيف وجده صابراً وقد شكك إليه ما به واسترحمه؟

قلت: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعاً ولقد قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها، فإذا صح أن يسمى صابراً مع تمنى العافية وطلب الشفاء فليسم صابراً مع اللجا إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ

غواش شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفتشره النائم.

هَذَا فُلْدُوقُهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴿٥٧﴾

أي هذا حميم فليذوقوه أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتداء فقال هو: **﴿حميم وغساق﴾**، أو هذا فليذوقوه بمنزلة وإياي فارهبون أي ليزوقوا هذا فليذوقوه والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين إذا سال دمعها وقيل: الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وعن الحسن رضي الله عنه الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا الله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة﴾**.

وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ ﴿٥٨﴾

﴿ولخر﴾ ومنوقات آخر من شكل هذا المنوق من مثله في الشدة والفظاعة **﴿أزواج﴾** أجناس وقرئ وأخر أي وعذاب آخر أو منوق آخر وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضرورياً أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير.

مَدَا فُوجٍ مَّقْتَحِمٍ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِذْ سَأَلُوا النَّارَ ﴿٥٩﴾

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقترام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب **﴿لا مرحبا بهم﴾** دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعو له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيفاً أو رحبت ببلادك رحباً ثم تدخل عليه في دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عليهم ونحوه قوله تعالى: **﴿كلما دخلت أمة لعنت آختها﴾** وقيل: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في اتباعهم ولا مرحباً بهم إنهم صالوا النار كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

قَالُوا بَلْ أَشْرَ لَا مَرْحَبًا بِكَ أَشْرَ قَدَّمْتَهُمْ لَنَا وَنَحْنُ أَفْرَارٌ ﴿٦٠﴾

﴿قالوا﴾ أي الاتباع **﴿بل انتم لا مرحباً بكم﴾** يريدون الدعاء الذي دعوتهم به علينا انتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم **﴿انتم قدمتموه لنا﴾** والضمير للعذاب أو لصليهم.

﴿إن قلت﴾ ما معنى تقديمهم العذاب لهم! **﴿قلت﴾** المقدم هو عمل السوء قال الله تعالى: **﴿ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم﴾** ^(١) لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه

﴿والأخيار﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كالاموات في جمع ميت أو ميت **﴿واليسع﴾** كان حرف التعريف دخل على يسع، وقرئ: **﴿واليسع﴾** كان حرف التعريف دخل على ليسع فيعمل من اللسع، والتتوين في **﴿وكل﴾** عوض من المضاف إليه معناه وكلهم من الأخيار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٦١﴾

﴿هذا نكر﴾ أي هذا نوع من النكر وهو القرآن لما أجرى نكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن ينكر على عقبه باباً آخر وهو نكر الجنة وأهلها قال: هذا نكر، ثم قال **﴿وإن للمتقين﴾** كما يقول: الجاحظ في كتبه فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر هذا وقد كان كيت وكيت واللليل عليه أنه لما أتم نكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بنكر أهل النار قال هذا وإن للطاغين وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل ينكرون به أبداً، وعن ابن عباس رضي الله عنه هذا نكر من مضى من الأنبياء.

جَاءَ عَدْنٍ مُنْمَعَةً لَمْ الْأَكْرَبِيُّ ﴿٦٢﴾ مُكْتَبِينَ فِيهَا يَتَبَوَّأُونَ فِيهَا بِغِيكِهِمْ كَكَبِيرَةٍ وَكَرَابٍ ﴿٦٣﴾ وَعِنْدَهُمْ قَيْرَتٌ الْكَرْبُ أَزْوَاجٌ ﴿٦٤﴾

﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله جنات عدن التي وعد الرحمن وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مأب و**﴿مفتحة﴾** حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي **﴿مفتحة﴾** ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال وقرئ: **﴿جنات عدن مفتحة﴾** بالرفع على أن **﴿جنات عدن﴾** مبتدأ و**﴿مفتحة﴾** خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو **﴿جنات عدن﴾** هي مفتحة لهم كان اللدات سميناً أتراباً لأن التراب مسهون في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الأقران أثبت وقيل: هن أتراب لأزواجهن أسنانهن كاسنانهم.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٥﴾

قرئ: **﴿يوعدون﴾** بالتاء والياء **﴿ليوم الحساب﴾** لأجل يوم الحساب كما تقول هذا ما تدخرونه ليوم الحساب أي ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادْ ﴿٦٦﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ ﴿٦٧﴾

﴿هذا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما نكر.

جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا يَنْسَوْنَ إِلَهَهُمْ ﴿٦٨﴾

﴿فبئس المهاد﴾ كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم

قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وصهيب وبلال وأشباهم، وقرئ سخرياً بالضم والكسر.

إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْرُونٌ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿إِنْ نُلَقَّ﴾ أي الذي حكينا عنهم ﴿لِحَقِّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو ﴿تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾، وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قُلْتُ: لم سمى ذلك تخاصماً؟ قُلْتُ: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأن قول الرؤساء لا مرحباً بهم وقول: أتباعهم بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَمَا إِلَهُي إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آتَى الْقَهَّارَ ﴿١٥﴾

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ما أنا إلا رسول ﴿مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم إن دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أن لا إله إلا الله ﴿الواحد﴾ بلا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ لكل شيء.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَعَّارُ ﴿١٦﴾

وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو ﴿العزیز﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك ﴿الغفار﴾ لذنوب من التجأ إليه، أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفة فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له نبأ عظيم.

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾

لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْآتِيَةِ إِذْ يَخْمِصُونَ ﴿١٩﴾

ثم احتج لصحة نبوته بأن ما ينبي به عن الملا الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله.

إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا مَا أَنَا بِدَارِعٌ مِنْهُ ﴿٢٠﴾

﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير﴾ أي لأنما أنا نذير، ومعناه ما يوحى إلي إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفشاء الفعل الفعل إليه ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إلي إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا إفراط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إلي غير ذلك وقرئ إنما بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقول

بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤسائهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فإن قُلْتُ: فالذي جعل قوله لا مرحباً بهم من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بل أنتم لا مرحباً بكم والمخاطبون أعني رؤساءهم لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قُلْتُ: كأنه قيل هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوي فارتكبه فليل للمزينين أخزي الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم فقال المزين لهم للمزينين بل أنتم الألى بالخزي منا فلو لا أنتم لم ترتكب ذلك.

قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا مِّمَّا فِي النَّارِ ﴿٢١﴾

﴿قَالُوا﴾ هم الاتباع أيضاً ﴿فزده عذاباً ضعفاً﴾ أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونحوه قوله تعالى: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً﴾ وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل: ﴿ربنا آتاهم ضعفين من العذاب﴾ وجاء في التفسير عذاباً ضعفاً حيات واقاعي.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَآ نَرَكَ يَا لَآ مَا كُنَّا نَعُدُّكَ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٢٢﴾

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين ﴿رجالاً﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم ﴿من الأشرار﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرازا.

أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٢٣﴾

﴿اتخذناهم سخرياً﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً مثل قوله كنا نعددهم من الأشرار وبهزمة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخرار منهم وقوله ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله: ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصار نافلا نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل باتخذناهم سخرياً إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخرار منهم أم الازدراء بهم والتحقيق وأن أبصارنا كانت تلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم وإما أن تكون منقطعة بعد مضي اتخذناهم سخرياً على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها لإبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقدر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته لأن أم تدل عليها فلا تفترق القراءتان إثبات همزة الاستفهام وحذفها وقيل الضمير في وقالوا لصناديد

قُلْتُ: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً وكان من باب الخصومة قُلْتُ: هذا يحق أن ما تقدم من قوله لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار من قول المتكبرين الكفار وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ﴾⁽¹⁾ من قول الأتباع فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم خلافاً لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الأتباع فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين الكافرين أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيها شئت، ويجوز أن يراد وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قَالَ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ سَبَّحْتَ لِلَّهِ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْهِ أَنتَ كَبَّرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْمَالِكِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ تَرَابٍ وَطَقَّمَنِي مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله ﴿خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾ قُلْتُ: قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل: في عمل القلب هو مما عملت يداك وحتى قيل: ممن لا يدي له يداك، أو كتنا وفوك ونفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا عملت أيدينا﴾⁽²⁾ ﴿ولما خلقت بيدي﴾⁽³⁾.

فإن قُلْتُ: فما معنى قوله: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ قُلْتُ: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف منه أنه سجد لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزلَّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزَّ عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوا قدام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرياً بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقت بيدي لا شك في كونه مخلوقاً امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة، فنذكر له ما

لكم أنما أنا نذير مبين ولا ادعي شيئاً آخر وقيل: النبا العظيم قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس القرآن وعن الحسن يوم القيامة.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق إذ يختصمون! قُلْتُ: بمحنوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصامهم و﴿إذ قال﴾ بدل من إذ يختصمون.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالملا الأعلى! قُلْتُ: أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

فإن قُلْتُ: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم: قالوا له فانت بين امرين إما أن تقول الملا الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملا الأعلى قُلْتُ: كانت مقابلة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملا الأعلى، والمراد بالاختصام التقاول على ما سبق.

إِذ نَالَ رَبُّكَ الْمَلْتَكَةَ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

فإن قُلْتُ: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إني خالق بشر﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ قُلْتُ: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فإذا سويته﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فقعوا﴾ فخرؤا كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فافادوا معاً أيهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات

فإن قُلْتُ: كيف ساغ السجود لغير الله؟ قُلْتُ: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يابأه العقل إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه.

فإن قُلْتُ: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟

فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

(3) سورة ص، الآية: 75.

(1) سورة ص، الآية: 60.

(2) سورة يس، الآية: 71.

فإن قُلْتُ: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قُلْتُ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

قَالَ فِعْرِيكَ لِأَعْوَبِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُحْصِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿فيعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٨﴾.

قريء: ﴿فالحق﴾ الحق منصوبين على أن الأول مقسم به كاش في أن عليك الله أن تبايعا وجوابه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿لأملأن﴾ والحق أقول اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق والمراد بالحق إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله إن الله هو الحق المبين أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر كقوله لعمر كله أي فالحق قسمي لأملأن والحق أقول أي أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلن والحق أقول أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه: التوكيد والتشديد وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضًا وهو وجه نقيق حسن، وقريء برفع الأول وجزءه مع نصب الثاني وتخريجه على ما نكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من نزية آدم.

فإن قُلْتُ: ﴿لجمعيين﴾ تأكيد لماذا؟ قُلْتُ: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحدًا ولأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٩١﴾.

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿وما أنا من المتكلمين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعًا، ولا مدعيًا ما ليس عندي حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾.

﴿إن هو إلا نكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للثقلين أوحى إلي قانا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوجه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم»⁽²⁾.

تركه من السجود مع نكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقراط الحشم، فيمتنع اعتبارًا لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه يريد هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه أنني خلقتك بيدي، فأنا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه من إنعام عليه بالكرمة السنبة وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له وقيل: معنى لما خلقت بيدي لما خلقتك بغير واسطة، وقريء بيدي كما قريء بمصرخي، وقريء بيدي على التوحيد ﴿من العالمين﴾ ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالمين حيث.

﴿قال أنا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ومعنى الهمزة التقرير وقريء استكبرت بحذف حرف الاستفهام لأن أم تدل عليه أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقًا من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو بوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتاكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خلقتني من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَبِّمْ ﴿٩٧﴾.

﴿منها﴾ من الجنة وقيل: من السموات وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنًا وأظلم بعد ما كان نورانيًا، والرجيم المرجوم ومعناه المطرود كما قيل له المسحور والملعون لأن من طرد رمي بالحجارة على أثره والرجم الرمي بالحجارة، أو لأن الشياطين يرحمون بالشهب.

فإن قُلْتُ: قوله:

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَمَعَنَ إِلَى يَوْمِ الْآزِينِ ﴿٩٨﴾.

﴿لعنني إلى يوم الدين﴾ كان لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع قُلْتُ: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فإن مؤن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾⁽¹⁾ ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة فكانها انقطعت.

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَتِ الْمَعْلُومُ ﴿١٠١﴾.

(1) سورة الأعراف، الآية: 44.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حفظ اللسان، فضل: في فضل السكوت عما لا يعنيه (الحديث: 5064).

وَلَنَنْتَنِيَنَ نَبَاؤُهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٣٨﴾

اتخذوا، يحتمل المتخذين، وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في **«اتخذوا»** على الأول راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر نكرهم لكونه مفهوماً والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قُلْتُ: فالخبر ما هو؟ قُلْتُ: هو على الأول إما **«إن الله يحكم بينهم»**، أو ما أضمر من القول قبل قوله: **«وما نعبدهم»**، وعلى الثاني أن الله يحكم بينهم.

فإن قُلْتُ: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمرة؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أن المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبي ما نعبدكم إلا لتقريبنا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، وقرئ **«نعبدهم»** بضم النون اتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتنوين في عذاب أركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويذلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من بون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعاونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقرؤا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في **«بينهم»** عائذ إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكنوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من بون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله:

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَكْفَى سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾

«لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق مما يشاء»، يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصمهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغرکم اختصاصه إياهم فزعتم أنهن أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

«ولتعلمن نبأه» أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وقشوه من صحة خبره، وأنه الحق والصدق وفيه تهديد عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر مكية

تَرَبُّبُ الْأَكْتَبِ مِنَ اللَّهِ الرَّحِيمِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

«تنزيل الكتاب» قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزمر.

فإن قُلْتُ: ما المراد بالكتاب قُلْتُ: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿٢﴾

«خلصاً له الدين» محضاً له الدين من الشرك والرياء، بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رنعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام كقوله تعالى: **«ولخلصوا دينهم لله»** حتى يطابق قوله:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَاللَّذِينَ أَحْنَدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نُنبِّئُهُمْ إِلَّا بِالْعُرْيُونِ إِلَى اللَّهِ فَذَلِكُمْ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

«ألا لله الدين الخالص» والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصاً حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين ألا لله الدين الخالص أي هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استرجار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص هادة إن لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام **«والذين»**

(١) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في التفسير: الزيلعي/3